الفلاحة و التّنمية المستدامة في تونس: بين مدٍّ و جزر

د. خولة بن عمار*

Dr. Khaoula Ben Ammar

مقدّمة

الفلاحة هي عمليّة مُنظَمّة، مُرتبطة بتفاعل الفصول و التحوّلات المناخيّة، يتبنّاها الفلاّح لانتاج الغداء، العلف، الالياف ، موّاد طبيعيّة اخرى و مشتقّاتها.

و حسب تعريف "ابي زكريّا الاشبيلي" في كتابه الفلاحة الاندلسيّة: "إنَّ الفلاحة والمعرفة بها ضاربة بجذورها في الأرض العربيّة في وادي الأردن وعلى السّاحل الشّامي، وعلى ضفاف الرّافدين في العراق، وعلى جنبات نهر النّيل بمصر، إذ كانت الزّراعة الباعث الأوّل لقيام تلك الحضارات العروبيّة والشرقيّة العرّيقة التي بنت المدن، وأقامت السّدود، ووضعت التّقاويم، وأقامت السُلالات الحاكمة، ونظّمت العمل والإدّارة، وطوّرت العلوم والآداب"[1].

على هذا الاساس ارتبطت الفلاحة اوالزّراعة منذ الازل بمفهوم الاستدامة لان الفلاحة المستدامة هي مفتاح التّنمية المستدامة، اي هي فلاحة قادرة على الصُمود، تنهض بالجانب الاجتماعي، الاقتصادي و البيئي، اي تُوفّر الغداء الازم للسّكان، تُطوّر الاقتصاد و تُحافظ على البيئة.

وفي هذا السّياق، تُعتبر تونس أصغر البلدان التي تقع في رُقعة شمال إفريقيا، تُعرف بمناخ معتدل، و تبلغ مساحتها 163،610 كم 2، تتميّز اقاليم البلاد التونسيّة بمورّوث زراعي هام ينقسم الى فسيفساء زراعيّة متنوّعة:

– تهيمن الزّراعات البقوليّة بنسبة 95٪ على الاراضي الصّالحة للزّراعة و تتوغّل الحبوب بنسبة 2/3، كذلك تكتسح الأشجّار المثمرة جهة الشّمال، خاصّة الشّمال الغربي الذي تكثر فيه المياه الجوفيّة و الجبال، و هذه الاخيرة تلعب دورا فعّالا في تشكُّل الغّيوم و نزّول الامطار و الثّلوج.

---

* المدرسة العليا للتجارة بتونس، جامعة منّوبة.

[1] ابي زكريّا يحيى بن محمّد بن احمد بن العوّام الاشبيلي (ت 580 ه)، "الفلاحة الاندلسيّة ج 1"، 323 صفحة، رقم الكتاب 4200.

– يحتكر المشهد الفلاحي للوطن القبلي غرس الاشجار المثمرة خاصّة القّوارص و الخضراوات، هذا الى جانب تعدّد المِحضنات الاصطناعيّة للدّواجن.

– يتبنّى شقّ الوسط غرس الاشجّار المثمرة، خاصّة الزيّاتين، و تستحوذ فيه الزّراعات البعليّة على نسبة 2/3 ، هذا الى جانب تربية المواشي.

يحتكر الجنّوب غرس اشجّار النخّيل، الزّيتون و الفواكه الجافّة المقاومة للجفّاف كالفستق، اللّوز و الكاكاويّة. –

1– نبذة على اهمّ البيانات الهيكليّة:

رسم بياني عدد 1:

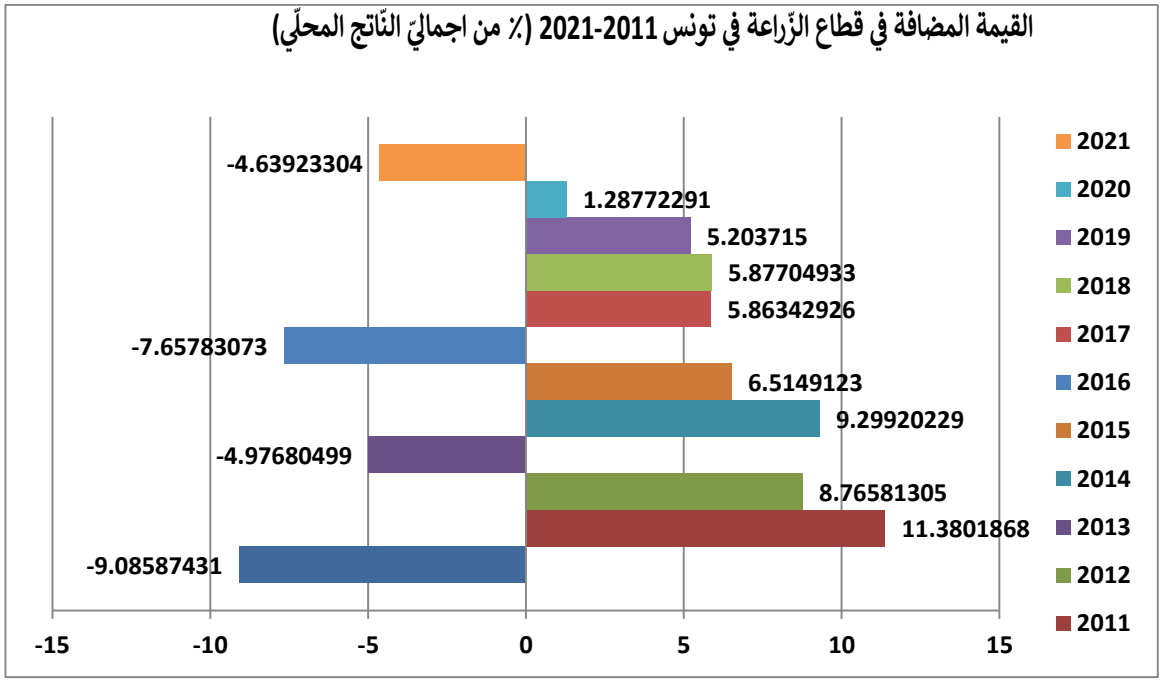

المصدر : البّنك الدّولي

رسم بياني عدد 2:

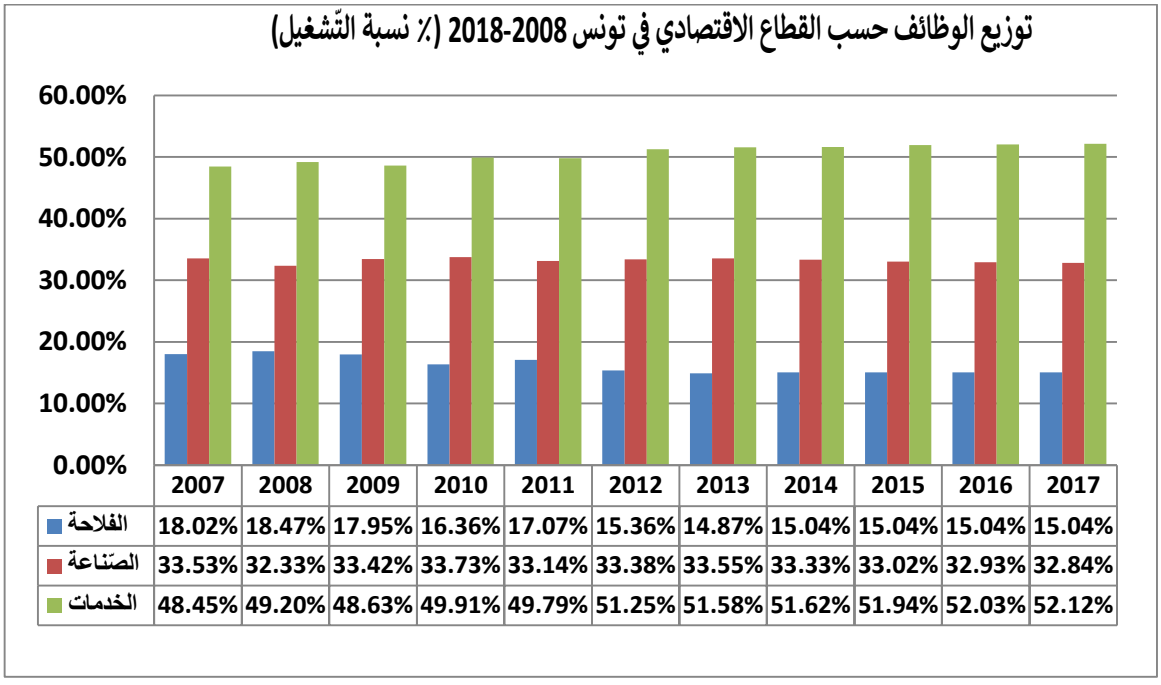

	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017
الفلاحة	18.02%	18.47%	17.95%	16.36%	17.07%	15.36%	14.87%	15.04%	15.04%	15.04%	15.04%
الصّناعة	33.53%	32.33%	33.42%	33.73%	33.14%	33.38%	33.55%	33.33%	33.02%	32.93%	32.84%
الخدمات	48.45%	49.20%	48.63%	49.91%	49.79%	51.25%	51.58%	51.62%	51.94%	52.03%	52.12%

المصدر : Statista 2022

رسم بياني عدد 3:

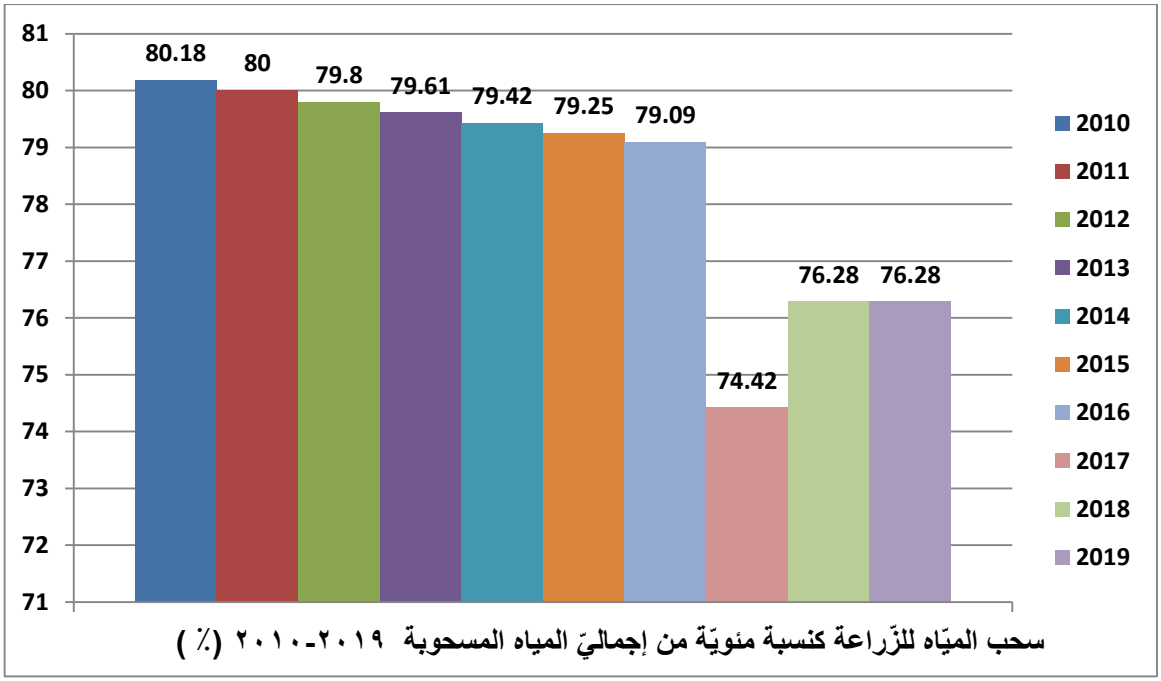

المصدر: نظام المعلومات العالمي لمنظّمة الفّاو بشأن الميّاه والزّراعة – AQUASTAT

رسم بياني عدد4:

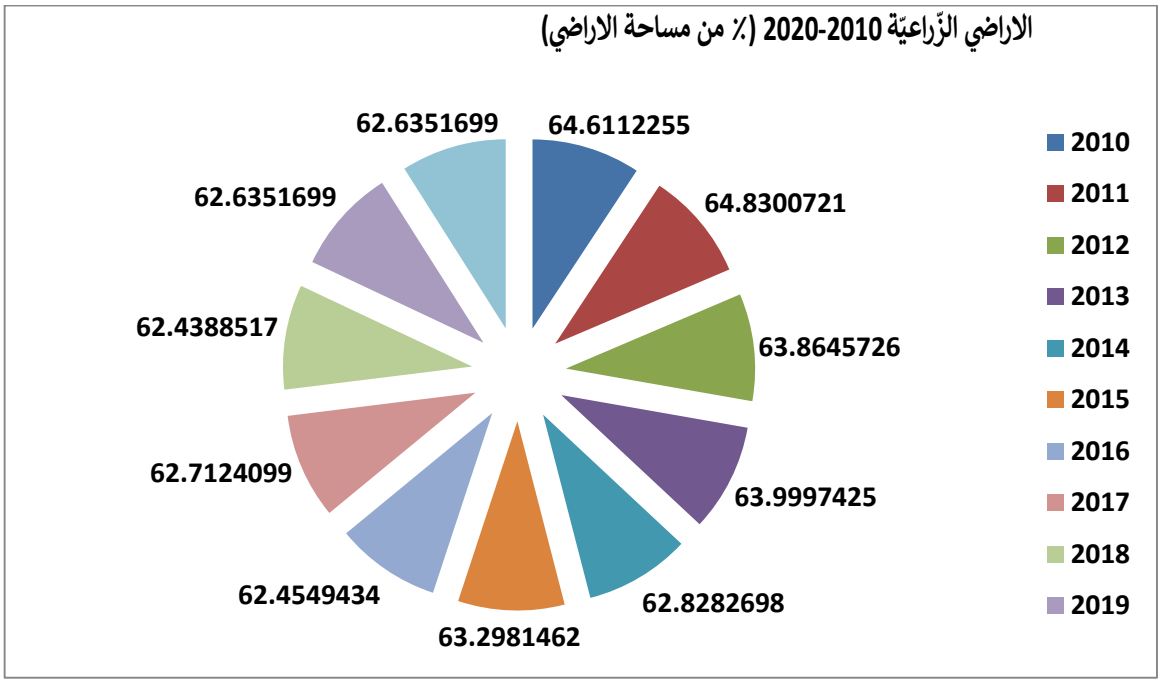

المصدر: البنك الدّولي

جدول عدد 1:

تطوّر مساحات الزّراعات البيولوجيّة حسب النّوع بالهكتار (2010-2019)

2019	2018	2017	2016	2015	2014	2013	2012	2011	201
251.569	241.119	254.411	147.762	127.250	131.525	123.694	100.500	111.750	119.4
3047	2789	2 946	1 701	1 200	1 331	912	1 030	1 100	1 02
211	179	137	90	445	128	76	90	170	310
14118	11243	11 816	4 946	2 189	2 900	4 450	920	4 300	6 55
1460	1595	485	384	430	460	414	1 210	1 500	1 40
791	777	918	21 367	20 013	178	27 046	820	1 000	850
4095,5	3635	4 867	158	1 930	5 985	5 731	2 680	10 500	700
48225	74091	102 458	56 962	64 109	49 534	59 427	87 660	115 040	273 6
48	128	48	1878						

2243.5	**2530**								

المصدر: وزارة الفلاحة و الموارد المائيّة و الصّيد البحري

يُعتبَرقطاع الفلاحة والصّيد البحري القطاع الحيوي الذي يغذّي اقتصاد البّلاد، لكن حسب دراسة البنك الدُّولي، تقهقرّت مساهمة هذا القطاع في النّاتج المحلي الاجماليّ خلال عقد من الزّمن، من2010 الى 2020، فقد تذبذبت معدلّات القيمة المضافة من عام لاخر، من انخفاض كثّيف الى ارتفاع طفّيف. (رسم بياني عدد 1)

و يرجع هذا الى عدّة تحدّيات:

– اجتياح القطاع الثاّلث لبقية القطاعات، حيث انتهجت الدّولة استراتيجيّة ثولثة الاقتصاد الّتي تعتمد على تعمّيم جُلّ المؤسّسات الخدماتية و تقلّيص انتهاج الخوصصة، لذلك بقي القطاع الاوّل اسفل درجات السُّلّم، ونتيجة لذلك اصبح طارد للتشغيل، فقد تكثّفت الحركات الهجريّة من الرّيف الى المدينة، و تركّزت اليد العاملة خاصّة في المناطق المصنّعة، و ذلك قصد البحث عن مواطن شغل لتحسين العوائد و مقاومة المعيشة المُكلِفة. (رسم بياني عدد 2)

– شُحّ المياه: فقد ركّزت المنظّمة العالميّة الفّاو على هذه النّقطة، حيث تداعت الاطلاقّات المائيّة لغرض الزّراعة خلال هذا العقد، من 80.18٪ الى 76.28٪. (رسم بياني عدد 3)

– حسب احصاء البّنك الدّولي، هناك تفاوت في استغلال الرّقعة الزّراعية في اجماليّ مساحة الاراضي خلال هذه المدّة، حيث ان هناك تزايد اكثر منه تراجع وهذا نتيجة لعدم دعم الفلاحّين، قضم المائدة المائية و الزّحف العمراني من المناطق الدّاخليّة الى المدن السّاحلية الكبرى، حيث تتبنّى هذه المدن قرابة ثلثي التّونسيّين، هذا مع العلم ان هذه الاراضي تمتدّ على قرابة 10 مليّون هكتار. (رسم بياني عدد 4)

– صعّوبة التزوّد بالبذور الجيّدة و الاسمدة العضويّة.

– ارتفاع تكلفة الشّحن.

– اتّساع الثّغرة الغذائية.

– عدم مسايرة الاستثمار الفلاحي للنموّ الدّيموغرافي.

– عدم اعتماد التّكنولوجيّآت الحديثة كالرّقمنة لتقيّيم جودة المنتوج.

– التصحّر و انجراف التّربة.

من منظور اخر، و بهدف انتعاشة هذا القّطاع، انتهجت الدولة الفلاحة البيولوجيّة او الايكّولوجيّة التى تتصدّى لايّ استعمال كيميائي مُصنَّع (اسمدة، مبيدات)، وذلك لهدف الحفاظ على النسّيج الطّبيعي والمجال الرّيفي، فقد تطرقّت وزّارة الفلاحة الى هذا الموضوع و سلّطت الضّوء في الجدول اعلاه على الحاصلات البيّولوجيّة و لا سيّما قطاع الزّيتون الذي يتجّه اغلبه نحو التّصدير و الّذي يعتمد على جودة زيت زيتّونه. (جدول عدد 1)

2– الفلاحة و الصّناعة:

رسم بياني عدد 5:

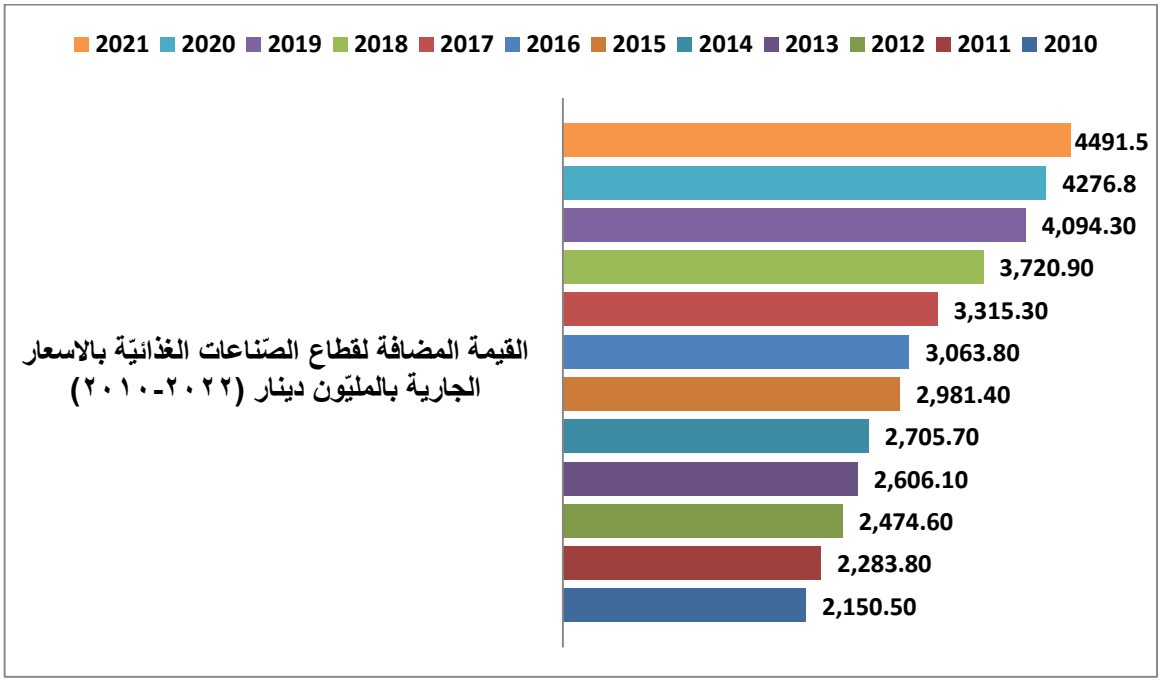

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائيّة)

رسم بياني عدد6:

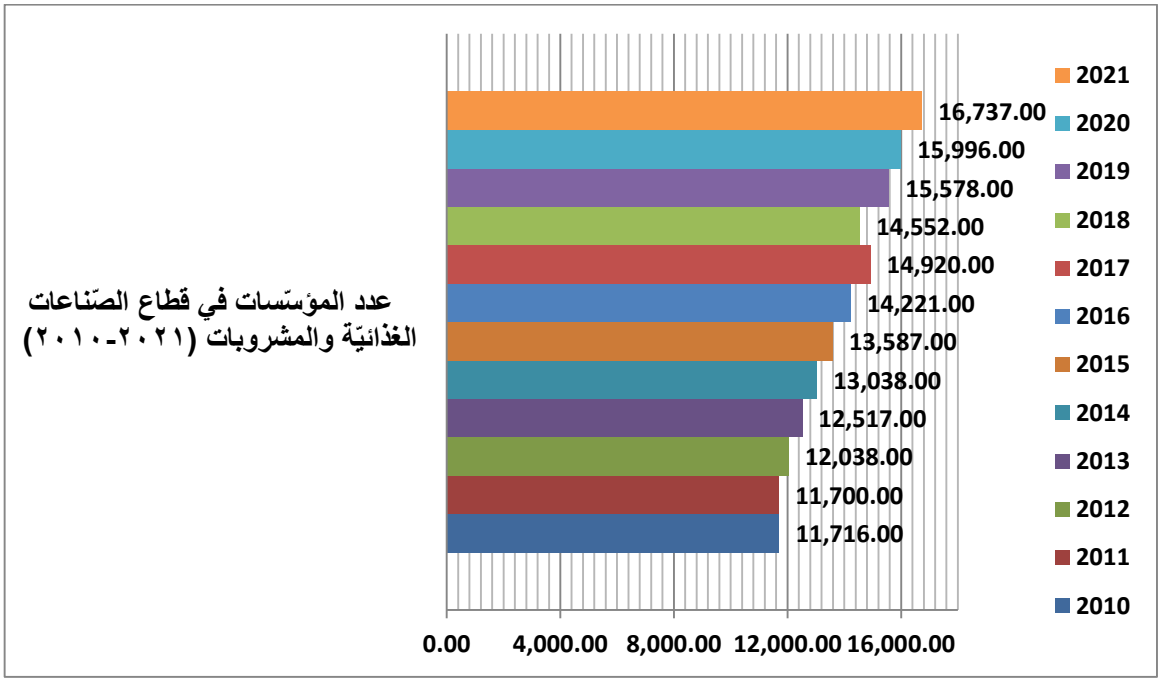

المصدر : المعهد الوطني للإحصاء(بنك البيانات الاحصائيّة)

رسم بياني عدد 7:

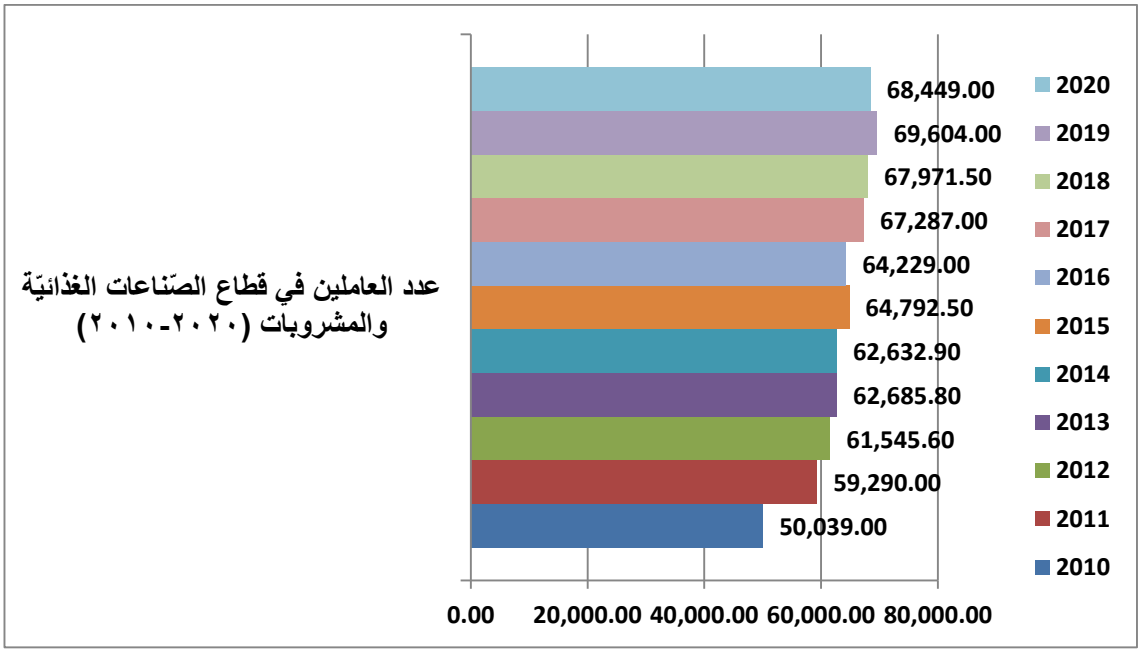

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائيّة)

يُهيمن قطاع المواد الغذائيّة و مشتقّاتها على النسّيج الصّناعي التّونسي، و يُعتبر بمثابة مَصبٍّ لمختلف المواد الفلاحيّة . بهذا الصّدد، نستشِفّ من خلال بيانات المعهد الوطني للاحصاء ارتفاع القيمة المضافة بالاسعار الجارية للصّناعات الغذائيّة خلال الفترة 2010-2021 ب2341 مليّون دولار، و هذا يرجع بالاساس لعدّة حوافز:

- تحدّيث جهاز الانتّاج لضمان جودة الانتاجيّة و تنوعّها ،ديناميكيّة ادفاق التّوزّيع و كثافة الطّلب الدّاخلي على هذه المنتوجات. (رسم بياني عدد 5)

هذا بالرغم من النّقص الطّفيف الذي طال عدد المؤسّسات التي تتفاعل في هذا القطاع، حيث كان بين سنتي 2017-2018 ب 368 مؤسّسة، و يرجع سببه الى النّظام الجبائي المُشِطّ. (رسم بياني عدد 6)

زيادة على ذلك، نقص العمالة في هذا القطاع، بين عاميّ 2013-2014 ب 52.9 عاملا، بين عاميّ 2015-2016 ب 563.5 عاملا و بين عاميّ 2019-2020 ب 1155عاملا؛ يتجلّى سبب هذا في

الحركات الهجرية، خاصّة هجرة الادمغة الى الخارج و حالات الوفّاة التي ارتفعت اساسا في العامّين الاخيرّين بسبب جائحة وباء كورونا. (رسم بياني عدد 7)

3- الفلاحة و التّجارة:

التّجارة الخارجيّة:

رسم بياني عدد 8:

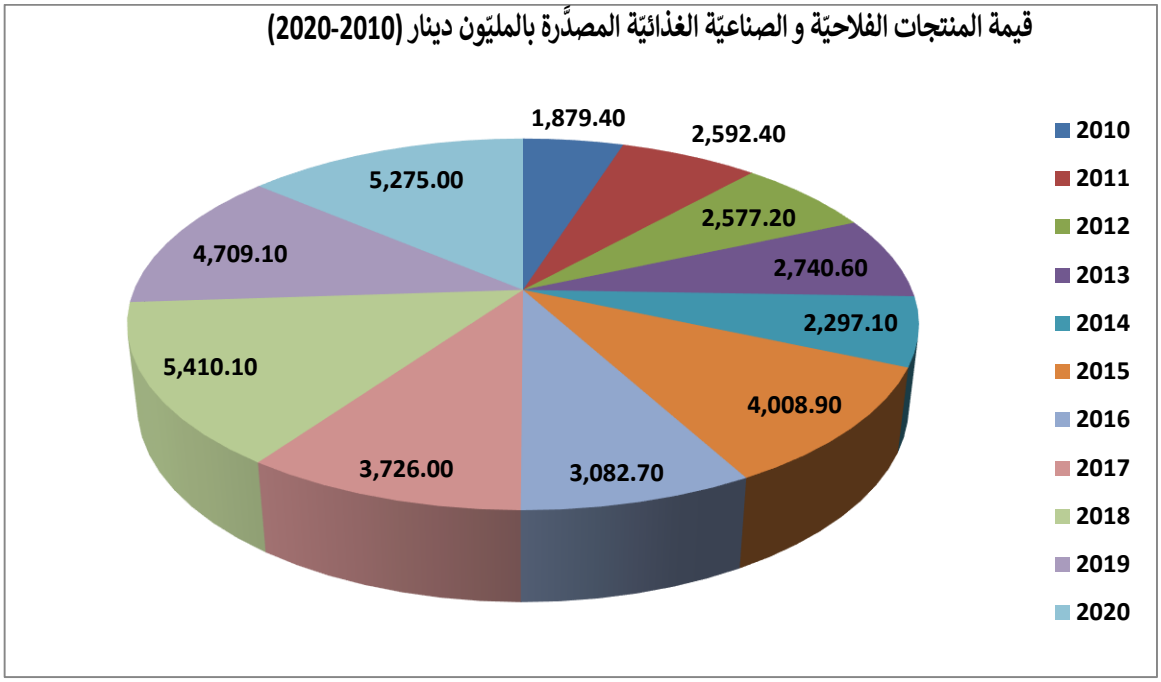

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائيّة)

رسم بياني عدد 9:

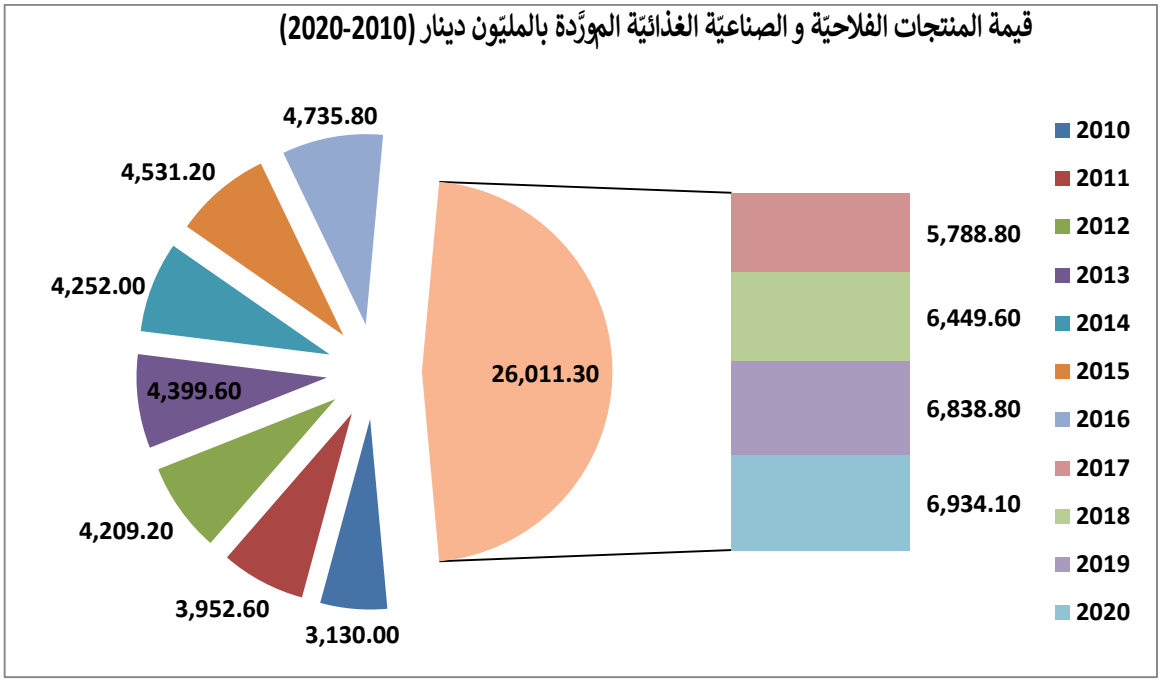

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائيّة)

جدول عدد 2:

تطوّر صادرات اهمّ المنتجات الفلاحيّة الغذائيّة بالمليّون دينار (2010-2021)

2021	2020	2019	2018	2017	2016	2015	2014	2013
1.710.9	2299.700	1386.900	2125.000	1009.400	872.400	1891.900	490.200	820.2
621.7	405.700	469.400	463.700	357.300	270.900	252.300	231.500	223.7
716.6	732.400	780.000	744.100	557.300	486.500	445.300	388.400	379.9

26.3	17.400	30.300	22.600	21.100	24.700	23.000	21.800	19.00

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء

جدول عدد 3:

تطوّر واردات المنتجات الفلاحيّة الغذائيّة بالمليّون دينار (2010-2021)

	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020	2021
القمح الصّلب	343.4	305.5	326.2	347.6	435.5	685.2	541.5	461.8	557.7	451.8	743.1	679.8
القمح اللّين	338.9	478.7	432.4	550.6	505.6	500.7	473.2	576.1	734.8	889.2	847.2	1 126.8
الشّعير	127.2	98.5	181.7	378.3	195.5	230.3	235.3	264.6	403.2	367.2	563.5	803.2
الذّرة	277.3	375.0	394.1	381.2	395.5	409.7	427.0	520.8	437.8	565.4	558.1	803.6

البطاطا	20.5	33.5	33.50	39.00	31.30	32.90	39.30	43.60	44.20	64.90	47.40	31.3
القهوة	41.6	91.8	99.80	90.50	86.20	105.3	98.20	165.4	174.7	161.5	150.3	181.9
الشّاي	25.1	18.9	24.30	20.40	19.70	17.00	15.90	35.00	23.40	37.50	36.60	38.5
اللّحوم	33.2	21.8	49.40	52.20	43.40	32.50	8.600	23.40	52.20	67.30	22.00	8.4
الحليب ومشتقاّته	49.8	64.8	82.00	79.40	80.90	51.50	52.10	99.20	141.5	179.5	144.1	102.2
الزّيوت النباتيّة	368.2	670.0	567.8	459.5	389.2	383.9	397.8	632.8	480.3	532.5	493.0	628.8
السّكّر	287.0	474.4	368.6	303.0	322.6	350.5	378.5	682.5	611.4	472.6	375.6	221.8
علف السّوجا	45.6	20.8	125.2	91.30	134.9	127.1	131.6	81.10	43.30	14.40	144.4	94.0

التّبغ الخّام	40.7	27.1	78.10	61.90	63.40	64.20	54.70	78.20	96.00	118.9	108.6	84.1

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء

حسب دراسة المعهد الاعلى للاحصاء، يُشغِّل القطاع 94100 عاملا في الرّبع الاوّل من سنة 2019، و تُصدَّر الموادّ الفلاحيّة الاساسيّة (التّمور، زيت الزّيتون و المنتوجات البحريّة) الى اكثر من مائة بلد، اهمّهم ليبيا و دول اوروبّا (اسبانيا، فرنسا و ايطّاليا).

حسب دراسة وكالة النّهوض بالاستثمار، تونس هي المُصدِّر الاوّل في العالم لزيت الزّيتون، المُصدِّر الاوّل في العالم للتُّمور "دِقلة نور"، المُصدِّر الاوّل في افريقيا للمواد البيولوجيّة و المُصنِّع العاشر في العالم للطّماطم.

حسب دراسة المعهد الوطني للاحصاء، بلغت قيمة صادرات المواد الغذائيّة 5298.83 مليّون دينار خلال الفترة 2010-2020 (رسم بياني عدد 8)؛ اما الواردات فقد بلغت 55221.7 مليّون دينار خلال هذه الفترة (رسم بياني عدد 9)؛ و نتيجة لذلك، شهد الميزان التّجاري الغذائي عجزا تجاريّا فادحا بلغ 49922.87 مليّون دينار، و هذا يرجع بالاساس الى ارتفاع اجماليّ مستوى واردات الحبوب (قمح ، شعير و ذرة) (جدول عدد 2)؛ و التي تجاوزت اجماليّ مستوى تصدّير زيت الزّيتون و التّمور خلال الفترة المُسمّاة (جدول عدد 3)؛ لذلك من البديهيّ ان يؤدّي هذا الى اشتعال شرارة التضخّم المالي أي ارتفاع المستوى العامّ لاسعار السّلع و الخدمات.

4- الفلاحة و الاستثمار:

رسم بياني عدد 10 :

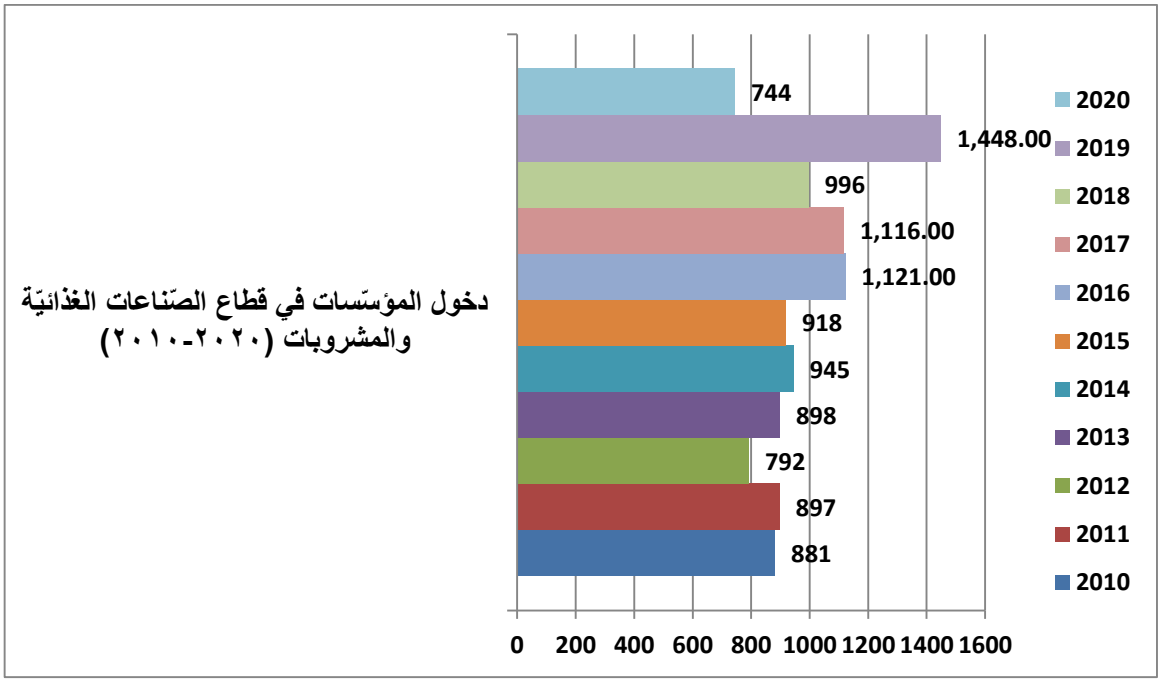

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائية)

رسم بياني عدد 11:

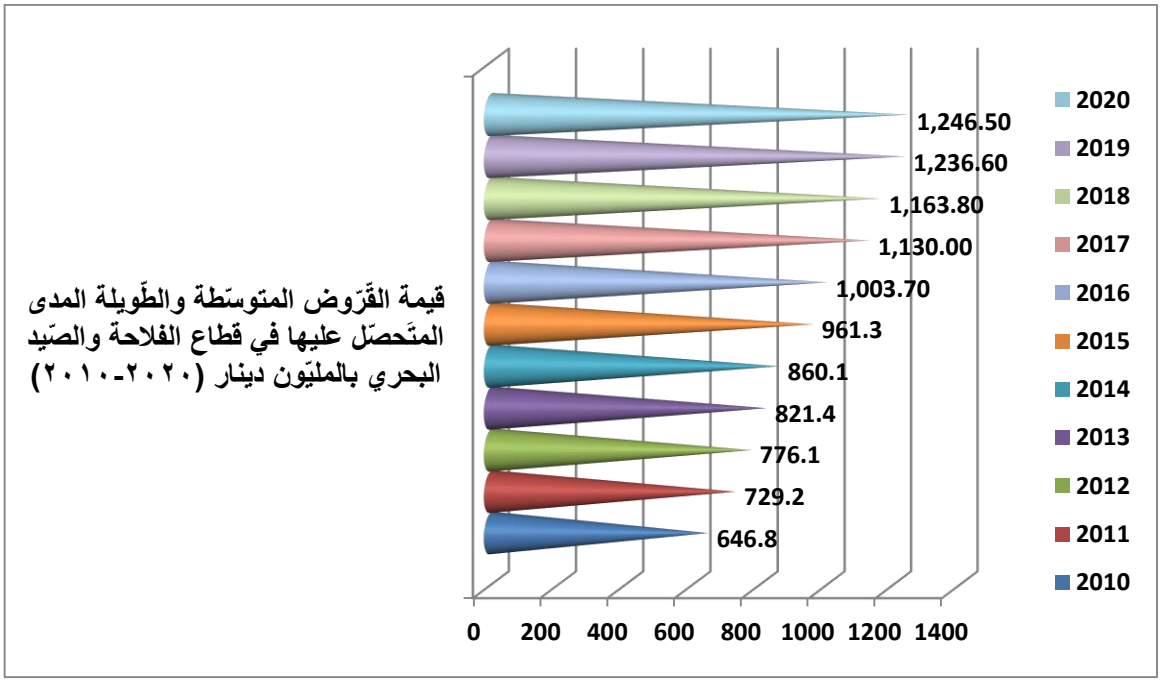

المصدر : المعهد الوطني للإحصاء (بنك البيانات الاحصائيّة)

جدول عدد 4:

تطوّر سنوي للاستثمارات الفلاحيّة المُصادق عليها حسب المناطق بالمليّون دينار (2019-2021)

الاستثمارات	2019	2020	2021
تونس	413	1580	1086
أريانة	3375	6013	6050
بن عرّوس	8246	7105	4719
نابل	51690	36324	52908
زغوّان	51458	9563	41250
بنزّرت	41091	30908	43199
منّوبة	27700	13215	4318
باجة	31205	11495	33232
جندّوبة	19337	19284	30999
الكّاف	13888	14660	13289
سليّانة	33690	13568	15829
القيروان	43540	53857	37463
القصرّين	53288	32019	45004
سيدي بو زّيد	50206	43963	42849
سّوسة	13384	11169	9440
المنستّير	31568	13397	16895
المهديّة	54597	16860	24417
صفاقس	35772	46045	58741
قفصة	37082	28067	25588

تّوزر	7010	7812	7406
قبلّي	11221	16254	8183
قابس	27917	43056	25214
مدنّين	24338	18255	16778

المصدر: وزارة الفلاحة و الموارد المائيّة و الصّيد البحري

رسم بياني عدد 12:

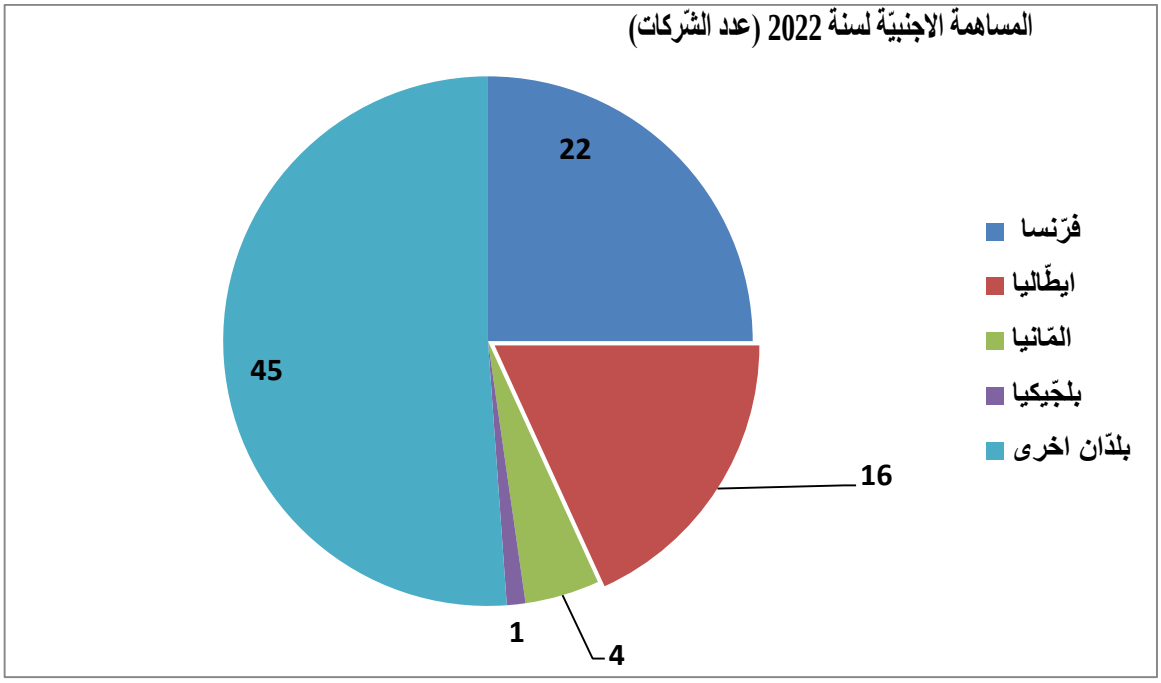

المصدر: وكالة الصّناعة و التّجديد

حسب بيانات المعهد الوطني للاحصاء، تهتمّ تونس بايلاء حظوظ كبيرة للاستثمار الخاصّ و المشترك في قطاع الفلاحة و الصّيد البحري، و ذلك بهدف تعزّيز قطاع تحويل المواد الغذائيّة و المشروبات، و كذلك تشجّيع دخول المؤسّسات الى هذا القطاع: 2010-2011 (16 مؤسّسة)؛ 2012-2013 (106 مؤسّسة)؛ 2013-2014 (47 مؤسّسة)؛ 2015-2016 (203 مؤسّسة)؛ 2018-2019 (452 مؤسّسة) (رسم بياني عدد 10)؛ فقد سهّلت الدّولة في القرّوض المتوسّطة و الطّويلة المدى التي ارتفع رصيدها ب 599.7 خلال الفترة 2010-2020. (رسم بياني عدد 11)

لكن اتّجهت بعض الشّركات الى سياسة الخوصصة، الّتي تُعرَفُ كسياسة احتكار للقطاعات العامّة، مما ادّى الى خروج بعض رؤوس الاموال الّذين كانت لهم شراكة مع الدّولة من هذا الميدان: 2011-2012 (105 مؤسّسة)؛ 2014-2015 (27 مؤسّسة)؛ 2016-2017 (5 مؤسّسات)؛ 2017-2018 (368 مؤسّسة)؛ 2019-2020 (704 مؤسّسة). (رسم بياني عدد 10)

فقد كان السّبب المباشر لتسرُّب رؤوس الاموال معضلة وباء كورونا، فقد تراجعت قيمة الاستثمارات التي صادقت عليها لخمسة عشرة ولاية من بين الثلاثة والعشرون خاصّة في المدّة التّى انتشر فيها الوّباء 2019-2020: (بن عرّوس: 1141 مليّون دينار؛ نابل: 15366 مليّون دينار؛ زغوان: 41895 مليّون دينار؛ بنزّرت: 10183 مليّون دينار؛ منّوبة: 14485 مليّون دينار؛ باجة: 19710 مليّون دينار؛

جندّوبة: 53 مليّون دينار؛ سليّانة: 20122 مليّون دينار؛ القصرّين: 21269 مليّون دينار؛ سيدي بوزّيد: 6243 مليّون دينار؛ سّوسة: 2215 مليّون دينار؛ المُنستّير: 18171 مليّون دينار؛ المهديّة: 37737 مليّون دينار؛ قفصة: 9015 مليّون دينار؛ مدنّين: 6083 مليّون دينار)؛ و من بين هذه الولايات، ستّة ولايات تراجعت فيها جذريّا قيمة الاستثمارات خلال الثّلاثة اعوام 2019-2021: (بن عرّوس، منّوبة، سيدي بو زّيد، سّوسة، قفصة و مدنّين). (جدول عدد 4)

بالنّسبة للاستثمار المباشر الاجنبي ،حسب دراسة وكالة الصّناعة و التّجديد لشهر اكتوبر 2022، و بالاعتماد على الرّسم البياني، نظرا لهشاشة الاستثمار الخاصّ و المشترك في السّنوات السّالفة، خاصّة السنوات الّتي ارهقها الوباء،اصبحت الدّولة مُلِمّة اكثر باجتذاب رؤوس الاموال الاجنبيّة لعدّة اسباب: دفع الناتج الاجمالي المحلّي، امتصاص البطالة، التدفّق التكنولوجي، انتعاشة الاسواق المحليّة و زيادة معدّل التّصدير. نتيجة لذلك، اجتاحت الشّركات الاجنبيّة قطاع الصّناعات الغذائيّة و لا سيّما فرّنسا (22 مؤسسة) ايطّاليا (16 شركة) المّانيا (4 شركات) بلجّيكيا (شركة) و بلدان اخرى (45 شركة). (رسم بياني عدد 12)

و هذا يعود اسّاسا الى الامتيازات التي منحتها الدّولة للمستثمر الاجنبي:

- اعفاء ضرّيبي من5 الى 10 سنوات.
- النّهوض بالبنية التحتيّة (الطرقات ، وسائل النقل ..) و تحدّيث مرافق الاتّصالات (الانترنات...) .
- منح تراخيص الاستثمار و تسهّيل الاجراءات الاداريّة في القّطاع الفّلاحي.
- تسهّيل الولوج الى الاسوّاق المحليّة.
- الاعفاءات الجمركيّة.

خاتمة

رغم ميولات الدّولة الى الفلاحة البيولوجيّة لهدف النّهوض بالصّادرات، لم يتمكّن هذا القطاع من تغطية الرصّيد المتراكم من الموّاد المورّدة و الخسائر المادّية خاصة في سنوات الوبّاء، هذا الى جانب هيمنة الشّركات العبر قطريّة على القطاع الثّاني و الثّالث الّذي يُعتبر اسفنجة حقيقيّة لامتصاص اليد العاملة الشابّة واستغلالها بارخص الاجور. نتيجة لذلك، و نظرا لتراجع المستثمرين و تنقّل الفلاحين الى القطاع الثاني، تُرك هذا القطاع وحيدا يتخبَّط في ظلّ كثير من التحدّيات خاصّة عدم تحقّيق الامن الغذائي ،عدم توفّير مورد رزق كافّ للفلاّح، استنزّاف المستثمر الاجنبي لجُلّ الاراضي الزراعيّة و تلوّيث تربتها بحجّة تعزّيز الصّادرات، هذا الى جانب تلوّيث الموارد المائية بالموّاد الكيميائية و انبثاق الغازّات السّامة التي تساهم في اتّساع ثقب طبقة الاوزّون و بالتّالي الوتّيرة السّريعة للتقلّبات المناخيّة.

لذلك يمكن للادارة المركزيّة ان تستئصل هذه التداعيات التي تُنهك هذا القطاع و تحقّق التّنمية المستدامة بالالتجاء الى بعض الحلول الجذريّة:

– تكثّيف الزّراعات البعليّة نظرا للفواقد المائيّة و الحدّ من الاحتفار العشوائي للابار.

– مراقبة الادارة المائيّة و نُظم الريّ.

– تسهّيل رخص و نُظم الاستثمار للفلاّحّين.

– تسهّيل القّروض لتموّيل الاستثمار في هذا المجال و القطّيعة مع الفلاحة التقليديّة لهدف:

–تطوّير وحدات البّحث في مجال التكنولّوجيا الزّراعية لضمان مردوديّة و جودة تكتسح الاسواق الخارجيّة.

–تطوير استراتيجيّات جديدة للحفاظ على المنتّوج الحيواني، الحاصلات المختلطة، التنوّع البيولوجّي و تخصّيب

كافّة انواع التّربة.

–الحرص على التزوّد بالبذور الجيّدة و الاسمدة الاساسيّة كالازوت لتعزّيز انتاج الحبوب الّذي يُعتبر قطاعا استراتيجيّا في تّونس.

–تجربة تقنّيات جديدة للزّراعة العلفيّة.

قائمة المراجع

- ابي زكريّا يحيى بن محمّد بن احمد بن العوّام الاشبيلي (ت 580 هـ)، "الفلاحة الاندلسيّة ج 1"، 323 صفحة، رقم الكتاب: 4200.

- البنك الدولي (البيانات المفتوحة للبنك الدولي)

https://data.albankaldawli.org/

- وزارة الفلاحة و الموارد المائية و الصيد البحري

bo.brcmarch@iresa.agrinet.tn

- نظام المعلومات العالمي لمنظمة الفاو بشأن المياه والزراعة - AQUASTAT

https://www.fao.org/aquastat/ar/geospatial-information/global-maps-irrigated-areas/irrigation-by-country/country/NIC

- Statista - le portail de statistiques pour les données de marché

https://fr.statista.com/

- المعهد الوطني للإحصاء(بنك البيانات الاحصائية)

http://www.ins.tn/

- وكالة الصّناعة و التّجديد

http://www.tunisieindustrie.nat.tn/ar/home.asp